﴿ سيرة السلف الصالحين في نصيحة السلاطين ﴾

(تابع لما في الجزء السابع وما قبله)

قال في الاحياء وعن ابي عمران الجوني قال لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنؤه بما صار اليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الاموال وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد وكان يظهر النسك والتقشف وكان مواخيا لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري قديماً فهجره سفيان ولم يزره فاشتاق هارون الى زيارته ليخلو به ويحدثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار اليه فاشتد ذلك على هارون فكتب اليه كتاباً يقول فيه « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين الى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد ياأخي قد علمت ان الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم أني قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبك ولم اقطع منها ودك واني منطو لك على أفضل المحبة والارادة ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبوا لما أجد لك في قلبي من المحبة واعلم يا ابا عبد الله أنه مابقي من اخواني وأخوانك أحد الا وقد زارني وهنأني بما صرت اليه وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرت به عيني واني استبطأتك فلم تأتني وقد كتبت اليك كتابا شوقا مني اليك شديدا وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته فاذا ورد عليك كتابي فالعجل العجل »

فلما كتب الكتاب التفت الى من عنده فاذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وغشوته فقال علي برجل من الباب فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني فقال ياعباد خذ كتابي هذا فانطلق به الى الكوفة فاذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور ثم سل عن سفيان الثوري فاذا رأيته فألق كتابي هذا اليه وع بسمعك وقلبك جميع ما يقول فأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرني به فاخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد اليها ثم سأل عن سفيان فقيل له هو في المسجد قال فاقبلت الى المسجد فلما رآني قام قائما وقال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق الا بخير قال عباد

فوقعت الكلمة في قلبي فخرجت فلما رآني نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت فاذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته فسلمت فما رفع أحد الي رأسه وردوا السلام علي بروس الأصابع فبقيت واقفا فما منهم أحد يعرض علي الجلوس وقد علاني من هيبتهم الرعدة ومددت عيني اليهم فقلت ان المصلي هو سفيان فرميت بالكتاب اليه فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه فقلبه بيده ثم رماه الى من كان خلفه وقال يأخذه بعضكم بقرؤه فاني أستغفر الله أن أمس شيئا مسه ظالم بيده قال عباد فأخذه بعضهم فعله كأنه خائف من فم حية تنهشه ثم فضه وقرأه وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب فلما فرغ من قرائته قال اقلبوه واكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه فقيل له يا أبا عبد الله انه خليفة فلو كتبت اليه في قرطاس نقي فقال اكتبوا الى الظالم في ظهر كتابه فان كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به وان كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا قيل له ما تكتب فقال اكتبوا

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري الى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سلب حلاوة الايمان أما بعد فاني قد كتبت اليك أعرفك أني قد صرمت حبلك وقطعت ودك وقليت موضعك فانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفدته في غير حكمه ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت الي تشهدني على نفسك أما اني قد شهدت عليك أنا واخواني الذين شهدوا قراءة كتابك وسنؤدي الشهادة عليك غدا بين يدي الله تعالى يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ام رضي بذلك حملة القرآن

وأهل العلم والارامل والايتام ام هل رضي بذلك خلق من رعيتك فشد يا هارون مئزرك وأعد للمسئلة جوابا ، وللبلاء جلبابا ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل فقد رزئت في نفسك اذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الاخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالما والظالمين اماما ياهارون قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وستركك يظلمون الناس ولا ينصفون يشربون الخمور ويضربون من يشربها ويزنون ويحدون الزاني ويسرقون ويقطعون السارق أفلا كانت هذه الاحكام عليك وعليهم قبل ان تحكم بها على الناس فكيف بك يا هارون غداً اذا نادى المنادي من قبل الله تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) أين الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان الى عنقك لا يفكهما الا عدلك وانصافك والظالمون حولك وأنت لهم سابق وامام الى النار كافي بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المشاق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيآت غيرك في ميزانك زيادة على سيئاتك بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها واعلم أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصح غاية فاتق الله يا هارون واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته وأحسن الخلافة عليهم واعلم ان هذا الامر لو بقي لغيرك لم يصل اليك وهو صائر الى غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد فمنهم من تزود زادا نفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته واني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته فاياك اياك أن تكتب لي كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام »

قال عباد فأتى الي الكتاب منشوراً غير مطوي ولا مختوم فأخذته وأقبلت الى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت يا أهل الكوفة فأجابوني فقلت لهم يا قوم من يشتري رجلا هرب من الله الى الله فأقبلوا الي بالدنانير والدراهم فقلت لاحاجة لي في المال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية قال فأتيت بذلك ونزعت ما كان علي من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين

وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافيا راجلا فهزأبي من كان على باب الخليفة ثم استوءذن لي فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة قام وقعد ثم قام قائما وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول انتفع الرسول وخاب المرسل مالي وللدنيا مالي ولملك يزول عني سريعا ثم ألقيت الكتاب اليه منشورا كما دفع الي فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تتحدر من عينيه ويقرأ ويشهق فقال بعض جلسائه يا أمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان فلو وجهت اليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره فقال هارون اتركونا يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقي من أهلكتموه ، وان سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه ثم لم يزل كتاب سفيان الى جنب هارون يقرأه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله فرحم الله عبدا نظر لنفسه واتقى الله في ما يقدم عليه غدا من عمله فانه عليه يحاسب وبه يجازى والله ولي التوفيق .

وعن عبد الله بن مهران قال حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياما ثم ضرب بالرحيل فخرج الناس وخرج بهلول المجنون فيمن خرج فجلس بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به اذ أقبلت هوادج هارون فكف الصبيان عن الولوع به فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته يا أمير المؤمنين فكشف هارون الستر بيده عن وجهه فقال لبيك يا بهلول فقال يا أمير المؤمنين حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصرفا عن عرفة على ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا اليك اليك وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك : قال فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الارض ثم قال يا بهلول زدنا رحمك الله قال نعم يا أمير المؤمنين رجل آتاه الله مالا وجمالا فانفق من ماله ، وعف في جماله ، كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار : قال أحسنت يا بهلول ودفع له جائزة فقال اردد الجائزة الى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها قال يا بهلول فان كان عليك دين قضيناه قال يا أمير المؤمنين هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم ان قضاء الدين بالدين

لا يجوز. قال يا بهلول فتجري عليك مايقوتك أو يقيمك قال فرفع بهلول رأسه الى السماء ثم قال يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله فمحال أن يذكرك وينساني قال فأسبل هارون السجاف ومضى: (ثم قال في الاحياء بعد نصيحة المأمون)

وعن أحمد بن ابراهيم المقري قال كان أبو الحسن النوري رجلا قليل الفضول لايسأل عما لا يعنيه، ولا يفتش عما لا يحتاج اليه، وكان اذا رأى منكراً غيره ولو كان فيه تلفه فنزل ذات يوم الى مشرعة (١) تعرف بمشرعة الفحامين يتطهر للصلاة اذ رأى زورقا فيه ثلاثون دنا مكتوب عليها بالقار. «لطف». فقرأه وأنكره لأنه لم يعرف في التجارات ولا في البيوع شيئاً يعبر عنه بلطف فقال للملاح ايش في هذه الدنان ؟قال وايش عليك امض في شغلك فلما سمع النوري من الملاح هذا القول ازداد تعطشا الى معرفته فقال له أحب أن تخبرني ايش في هذه الدنان قال وايش عليك، أنت والله صوفي فضولي هذا خمر للمعتضد يريد ان يتمم به مجلسه فقال النوري وهذا خمر؟ قال نعم قال أحب أن تعطيني ذلك المدرى فاغتاظ الملاح عليه وقال لغلامه أعطه حتى أنظر ما يصنع فلما صارت المدرى في يده صعد الى الزورق ولم يزل يكسرها دنا دنا حتى أتى على آخرها الا دنا واحدا والملاح يستغيث الى ان ركب صاحب الجسر (٢) وهو يومئذ ابن بشر أفلح فقبض على النوري وأشخصه الى حضرة المعتضد وكان المعتضد سيفه قبل كلامه ولم يشك الناس في أنه سيقتله قال أبو الحسين فأدخلت عليه وهو جالس على كرسي حديد وبيده عمود يقلبه فلما رآني قال من أنت قلت محتسب (٣) قال ومن ولاك الحسبة قلت الذي ولاك الامامة ولاني الحسبة يا أمير المؤمنين قال فأطرق الى الارض ساعة ثم رفع رأسه الي وقال ما الذي حملك على ماصنعت قلت شفقة مني عليك اذ بسطت يدي الى صرف مكروه عنك قد قصرت عنه قال فأطرق مفكرا في كلامي ثم رفع رأسه الي وقال: كيف تخلص هذا الدن الواحد من جملة الدنان؟ قلت في تخليصه علة أخبر بها أمير المؤمنين ان أذن قال هات اخبرني قلت يا أمير المؤمنين اني أقدمت على

(١) مورد ماء (٢) أي الحاكم المولى من الخليفة وهو كالمحافظ في مصر (٣) المحتسب هو من يزيل المنكرات كالبوليس

الدنان بمطالبة الحق سبحانه لي بذلك وغمر قلبي شاهد الاجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هيبة الخلق عني فأقدمت عليها بهذه الحالة الى أن صرت الى هذا الدن فاستشعرت نفسي كبرا على اني أقدمت على مثلك فهبت ولو أقدمت عليه بالحال الاول وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال فقال المعتضد اذهب فقد أطلقنا يدك غير ما احببت أن تغيره من المنكر قال أبو الحسين فقلت ياأمير المؤمنين بفض الي التغيير لاني كنت أغير عن الله تعالى وأنا الآن أغير عن شرطي فقال المعتضد ماحاجتك فقلت ياأمير المؤمنين تأمر باخراجي سالما فامر له بذلك وخرج الى البصرة فكان أكثر أيامه بها خوفا من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد فأقام بالبصرة الى أن توفي المعتضد ثم رجع الى بغداد

فهذه كانت حالة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطو السلاطين لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم و رضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها وأزال قساوتها وأما الآن فقيدت الاطماع ألسن العلماء فسكتوا وان تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لافلحوا ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الاراذل فكيف على الملوك والاكابر والله المستعان على كل حال اه

(المنار) هذا كلام الامام الغزالي في ملوك عصره وعلمائه وهم الذين يفتخر أهل هذا العصر بهم فكيف حال ملوك عصرنا وعلمائه الذين اضاعوا الدنيا والدين وجعلوا المسلمين بظلمهم وفسادهم في اسفل سافلين . ولا نطيل هنا في وصفهم فحسبك ماتقرأ في المقال الآتي ولكننا نقول ان الزمان لايخلو من العلماء المخلصين وهؤلاء هم الذين ندعوهم الى نصيحة ملوكنا وامرائنا قبل ان يضيعوا هذه البقية القليلة التي بقيت لنا فالخطر قريب ان لم يتداركوه نزل والعياذ بالله تعالى

﴿ الجامع الازهر - مشيخته وادارته ﴾

كتبنا في الجزء الثاني من منار السنة الماضية (ص ٧٦ م ٨) ما نصه : ما كانت مشيخة الازهر في زمن من الأزمان عرضة للتغيير والتبديل من الحكام كما نراها في هذه السنين فقد تناول العزل والابدال شيوخ هذا الجامع عدة مرات في بضع سنين - عزل الشيخ حسونه باتفاق الحكومة مع الأمير وولي بعده الشيخ عبد الرحمن القطب فلم يلبث أن عزله حكم المنون فاختار الامير للمشيخة الشيخ سليما البشري ثم عزله بمحض ارادته وولى مكانه السيد عليا البيلاوي بالاتفاق مع الحكومة أو مع أولي الأمر كما يقال . وفي هذا الشهر (أي صفر) استقال هذا الشيخ ونصب بدله الشيخ عبد الرحمن الشربيني باتفاق الحكومة » ثم ذكرنا استقالة الاستاذ الامام و بعض أعضاء مجلس الادارة

وكتبنا في نبذة أخرى أن الامير قد اتفق مع حكومته على أن كل ما يهم الحكومة من الازهر شيئان الأول أن يكون أهله في أمان والثاني تخريج القضاة الشرعيين وأن التعليم فيه لما كان غير كاف لتخريج القضاة عزمت الحكومة على انشاء مدرسة لتخريج القضاة خاصة . ثم قلنا أنه كثر التساؤل بين الناس عن سبب استقالة الشيخ محمد عبده من ادارة الازهر مع حرصه على اصلاحه وأجبنا عن ذلك بالاشارة الى الشغب الذي بلغ في ذلك العهد غايته في ذلك المكان فان بعض الشيوخ الذين يترددون على قصر الامير كانوا يحرضون مدرسي الازهر على الشكوى من شيخ الازهر ومجلس الادارة وعدم الخضوع لما يراد تنفيذه من قانونه وعلى ما هو أعظم من ذلك وقد اشتهر عند الاكثرين أن الغرض من ذلك أن يستقيل شيخ الازهر والمفتي « رحمهما الله » وأن الامير هو الذي يريد ذلك . وأكد ذلك ما نشر لذلك العهد في الجرائد المصرية والمؤيد وغيرها من الجرائد التي تخدم « المعية » وأهم ذلك مقال في حديث قال صاحب الجوائب أنه جرى بينه و بين شيخ من كبار علماء الازهر وصفه بأوصاف فهم الناس منها أنه الشيخ عبد الرحمن الشربيني الذي كان بعض بطانة الامير يحاولون اقناعه

بقبول المشيخة التي أيقنوا أن البلاوي مستقيل منها لما اتخذ لذلك من الاسباب الملجئة . ولما استقال السيد البلاوي وعين الشيخ الشربيني شيخا للازهر واحتفل بالباسه الخلعة بحضرة الامير ألقى الامير ذلك الخطاب على الشيوخ وكان موئيدا لروح ما كانت تنشره تلك الجرائد

كان مدار ذلك الكلام على أن كل ما يهم الامير وحكومته من الازهر أن يكون في أمان وهدو وبعد عن الشغب والقلاقل وأن يظل مدرسة دينية كما كان وربما كانوا يظنون أن سكون الازهر وراحة أهله ورضا كبار شيوخه عن الامير واخلاصهم له هو مما يتجه جعل الشربيني شيخا للازهر لانه في مقدمة العلماء الازهريين الذين يرون وجوب بقاء الازهر على حاله التي كان عليها في زمن تعلمهم فيه وترك الشيخ محمد عبده له وهو هو الذي يريد تغيير نظام التعليم وزيادة العلوم والفنون فيه ولكن جاء الامر على نقيض ما كان يظن أولئك الظانون فاستاء محبو الاصلاح من أهل الازهر لترك الاستاذ الامام لادارته كما استاء عقلاء المسلمين في كل مكان . وأما المحافظون على الحالة العتيقة فقد رأيناهم على عهد الشيخ الشربيني اشتد استياء من ادارة الازهر منهم على عهد من سبقه كما أشرنا الى ذلك في العدد الماضي وكثر في هذا كلام الناس وكتابة الجرائد بالشكوى من حال الازهر والطعن في علمائه حتى ان بعض الافندية كتب في بعض الجرائد اليومية يقول في بيان جهل علماء الازهر بالدين وفقد الثقة بهم ما معناه ان الناس لا يقصدون في حل مشكلات الدين والدفاع عنه الا الى بعض حملة الطرابيش وفي ذلك هضم لغير الازهريين من حملة العمائم كاساتذة المدارس الاميرية وغيرهم

هذا ما ذكرنا برسالة كان أرسلها الينا زعيم النهضة الاسلامية في الهند السيد النواب محسن الملك خان الشهير بعلمه وفضله يرد بها على ما كنا اعتذرنا به عن علماء الازهر تعقيبا على رسالته التي نشرناها في الجزء السادس من السنة الماضية وهي التي أظهر فيها استياءه واستياء مسلمي الهند من ترك الاستاذ الامام للازهر وطعن فيها بعلمائه طعنا شديدا فلم نرنشرها في ذلك الوقت لمانع زال فنحن ننشرها الآن وهذه هي

بسم الله الرحمن الرحيم - واياه نعبد واياه نستعين

سعادة الفاضل الحكيم العلامة دمتم بالعز والكرامة

سلام عليكم فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه النبي الكريم . وعلى آله وصحبه السادة الفهامة . و بعد فانا قد سررنا وتنشطنا بحسن صنيعكم البنا من نشر رسالتنا المشبعة الطويلة التي كتبناها اليكم في قضية علماء الازهر واستقالة الاستاذ الامام الكبير محمد بن عبده في مجلتكم الباهرة الغراء التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي وقد سرني أيضا ما قد استنتجتم ذلك باتقادكم الحافل البديع عقيب هذه الرسالة تعاتبون فيه عن علماء الازهر واستغرابكم الوسم بذلك في دفع ما وقع من الغلط والخطأ في الآراء التي ارتآها الناس فيهم ولكن الذي آمل من طيب خلقكم وطهارة سريرتكم هو ان تعفوا عني عما قد تجاسرت في الانتقاد على هذا الانتقاد فانه يا اخي ليس فيما أحسب مما يطمئن به بال احد او ان يهتدبه ما قد رآه اكثر أهل النظر في هؤلاء العلماء من انهم لا يحبون اشاعة العلوم الحديثة ولا يجوزون لها السبيل والتطريق في المدارس والكليات ولا واحد عندي يقلع عن رأيه ذلك فيهم فيما احسب فقد علمت ياسيدي ان نصف علماء الأزهر وتعصبهم للعلوم الخلقة البالية وخلافهم للاصلاح في شؤون التعليم والأخذ بالعلوم الحديثة ليس مما يرتاب فيه احد فقد شحنت بذلك الجرائد المصرية كلها لا سيما مجلتكم الباهرة التي نصت على انهم لا يجوزون العدول يسيرا عن المنوال العتيق الذي يجري عليه نصاب التدريس في الجامع الازهر ويتحرجون في تشكيل صناعة التاريخ والجغرافيا في نصاب الدرس الحاضر فما ظنك بالعلوم العالية الافرنجية وما هي فيه من المناهج الجديدة في أرض أوروبا أفحسبت يا سيدي ان الذين لا يزالون يقرؤون ويتلون الجرائد المصرية ولا يفترون عن مطالعة جريدتكم الغراء ليلا ونهارا أفتراهم يقلعون عن رأيهم في شأن هؤلاء العلماء أم ترى ان اعتقادهم في هؤلاء فيما أفديتم بنفسكم بأنهم يعتقدون بأن العلوم الدنيوية تقوض بناء الدين وتفسد العقائد في قلوب

المسلمين وان اصلاح طريقة التعليم خروج عن صراط السلف المستقيم أفترى أن هذا الاعتقاد منهم يزول أو يحول أو يضمحل بشيء عن قلوبهم مما كان عندهم من قبل أما تراهم يراقبونك في قولك وكل هذه الظنون فيهم باطلة كلا ولا كرامة وحاشاهم عن ذلك

فأما أنتم فلعمري لم تألوا جهدا في المحاماة عن هؤلاء العلماء وأتيتم في بيان ذلك بحجتين وكتابا تنتقد عليهما ونظر في وزنهما ورجحهما على مناهج أصحاب النظر أما الحجة الاولى فقولكم ان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها الخ وأما الاخرى فقولكم ولا يعلمون بدين أكابر أمرائهم وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر واوروبا الخ ولكن هذا الكلام منكم لا يجديهم نفعا ولا يحامي أو يذب عنهم بشيء فقد عرفهم ما هو من دينهم علماء هذا العصر أنهم يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يقولون وهم الذين قال فيهم الشاعر العارف الحكيم مصلح الدين السعدي الشيرازي وهو من مقاريف الشعراء ومشاهير أهل النظم - قال :

ترك دنيا بمردم آموزند خورش غم وغله اندوزند

يعني بذلك انهم يعلمون الناس ويحملونهم على رفض الدنيا وترك زخارفها وهم بأنفسهم يكنزون الفضة ويحتكرون الطعام لانفسهم(*) ومن دينهم أيضا أن لا يطعنوا بشيء على الامراء والولاة كيما لا يحرموا من صلاتهم ولا يأمروا من استجلاب خيرهم ومبراتهم بل وانا تراهم يراقبون العامة في بدعهم ولا يشنعون بشيء على افاعيلهم ويشاركونهم في الاحداث الفظيعة التي يأتون بها في الدين فتراهم لا ينكرون عليها بل يعاضدونهم بمراقبتهم ومشاركتهم فيها وشاهد ذلك قولكم في هذه النمرة التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي « شايخ الازهر يقررون في كتب الحديث نهي الشارع عن بناء القبور واتخاذ المساجد عليها واتخاذها أعيادا وتعظيمها ثم أنهم يشاركون العامة في هذه الاعياد

(*) قال الشاعر العربي (وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها افاويق حتى ما يدر لها ثعل)

التي يسمونها موالد على مافيها من المنكرات التي نهى عنها أئمتهم في الفقه ثم أنهم يقرءون في شمائل نبيهم انه كان يبدل شعره الشريف ويفرقه وهم ينكرون على من يفعل ذلك من اهل العلم والدين وقد امرني بذلك بعضهم وكان شيخا الازهر قائلا انك من اهل العلم لا يليق بك ان ترسل شعرك فاحلقه فحججته بالسنة فحاجني بأن ذلك شعار العلماء الآن » وقد صرحتم قبل ذلك بشيء في قولكم من ٢٢١ من هذه النمرة الحاضرة « وانما صرح العلماء بكراهة حلق الرأس وكونه مخالفا للسنة لانه كان في الصدر الاول شعار الخوارج فاما اذا اخذنا باطلاقهم كان اللوم في ترك هذه السنة موجها في هذا العصر الى علماء الدين فانهم يحلقون بل ينكرون على من لم يحلق وهم مخطئون »

هذا ام كيف يوافقكم احد في قولكم « ظلم وألف ظلم لعلماء الازهر ان يقال فيهم انهم يعدون علوم الدنيا خطرا على الدين أو عائقا عن علومه وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين » الى آخره

وقد سلف منا مرارا انا قد رأينا في الجوائب المصرية انها قالت في شأن رجل عظيم من العلماء « انه محترم المقام بين علماء المسلمين يجله كبيرهم وصغيرهم لعلمه وفضله ويعدونه حجة وقته وامام زمانه في علوم الدين وأصول الشريعة » فهذا العالم الجليل الذي تراس العلماء في عصره ومن رأيه مايقول لمدير الجوائب عائذ أنعائذه « غرض السلف من تأسيس الازهر اقامة بيت فقه يعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركه لنا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم ..... وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الاعصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له »

ولما راجعه المدير واستحفاه بالسؤال قائلا « هل حدث يامولاي ما يقف للازهر في الخدمة المطلوبة منه فتبسم الاستاذ ثم قال بل ان الذي من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني ويحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفئ نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية الى آخره » وتجاهر في آخر كلامه متظاهرا قائلا « ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس الا وليتركوه كما هو حصن للدين وان أرادوا به اصلاحاً فليكن الاصلاح

منحصرا في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم وما سوى ذلك من مبادئ الفلسفة والعلوم الحديثة العالية فلتدخله الحكومة ان شاءت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه

أم كيف نصدقكم في قولكم هذا وانا نرى هؤلاء العلماء قد ثاروا وشغبوا الناس وأثاروا في اصلاح الازهر بما اضطر الخديوي الى اخماد الفتنة وخاطب شيخ الجامع الازهر قائلا « ان الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر فيها علوم الدين الحنيفية في مصر وجميع الاقطار الاسلامية..

ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الازهر والازهريين دائما » ولما كان يخال ان هؤلاء الرهط الذين يرومون الاصلاح كلهم مفسدون قال فيهم « أول شيء أطلب أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائدا في الازهر الشريف والشغب بعيدا عنه فلا يشغل علماؤه وطلبته ألا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء ومن كان يحاول بث الشغب بالوساوس والاوهام أو الايهام بالاقوال أو بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيدا عن الازهر ومن كان أجنبيا من هؤلاء فأولى به أن يرجع الى بلده ويبث فيها مايريد من الاقوال والآراء المغايرة للدين ولمصلحة الازهر والازهريين »(١)

فهل في الوجود أحد يقف على هذه الاحوال ويعرفها حق المعرفة ثم يرتاب في أن هؤلاء العلماء اكثرهم لا يجوزون الاصلاح في النهج القديم للتعليم ويحسبون أن العلوم الحديثة بأسرها مطعنة للنور والاسلام ولعمري أن هؤلاء العلماء هم الذين اتخذوا جامع الازهر الذي كان من حقه أن يكون رحمة وبركة للمسلمين مركزا للنكبة وموطنا للمذلة ومعقلا للستر بقوموضعا للسخرية ولو نظرت الى العلوم التي تدرس فيها لوجدتها بأسرها علوما بالية عتيقة اتخذها المقلدة من العلماء علوما دينية ولا تجد فيها الا تلقين نبذ من المسائل التي تشمئز منها العقول وتمج قبولها احلام الفحول وذلك من اجل مخالفتها لقواعد الحكمة واصول الفطرة ولا يوجد فيها غير تعليم ماعداها من المطالب التي لا تستنير بها ادمغة الرجال ولا

(١) المنار: قالت جريدة اللواء يومئذ ان المراد بالاجنبي هنا صاحب المنار

ينسج بها فضاء علمهم ومعرفتهم بل يتركز بها التقليد في تخوم قلوبهم وقد امتلأ القرآن العزيز بذمه وشحن الكتاب المجيد برده وجل همتهم في ان يحمل الناس على مناهج يعتقدون به ان الاسلام بدع هذه البدع ونفس هذه الاحاديث التي ليست بأدون من احاديث خرافة بل عين الشرك الجلي فضلا عن الشرك المخفي وانما جهدهم في المنع عن تعليم صنعة تنفعهم بشيء اما في الدنيا أو في الدين هذا شيء من حالهم في تعليم العلوم فأما سبل التعليم ومناهج تدريسهم ونظم الامور فيه فامره اشهر من ان يذكر وابين من ان يوضح ولقد تفجع له بعض فضلاء الهند الذي كان حلا بالقاهرة وكتب في ذلك كتابا الى حيدراباد عاصمة دكن ولقد نشرتموه في الجزء العاشر من المجلد الخامس من مجلتكم المنار وبعد ذلك فهل تحسبون انا نحسن الظن بهؤلاء العلماء ونضعهم في ميزان علمائنا السلف الذين مضوا الى رضوان الله كالامام الغزالي وابن رشد الاندلسي والامام ابن الخطيب الرازي وغيرهم فقد كانوا يعتقدون ان العلوم الكونية والعقلية عين هذه العلوم الدينية وكانوا يحضون المسلمين ويحثونهم ويحرضونهم على تحصيلها في تآليفهم وكتبهم واسفارهم وزبرهم التي كانوا يملونها لنشر تلك العلوم ويخاطبون فيها اخوانهم المسلمين قائلين « معاشر الخلان اني آنست نارا في وادي هذه الفنون آتيكم منها بخبر أو قبس لعلكم تصطلون » أوليس هؤلاء العلماء قد عثروا على قضية عمر بن حسام فيما اخرج الخبر به الامام الرازي في التفسير الكبير من ان عمر بن حسام كان يقرء كتاب المجسطي على عمر الابهري فقال بعض الفقهاء يوما ما الذي تقرؤنه فقال افسر آية من القرآن وهي قوله تعالى « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها » فانا افسر كيفية بنائها ولقد صدق الابهري فيما قال فان كل من كان اكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان اكثر علما بجلال الله وعظمته انتهى كلام الرازي بعيون الفاظه

او لم يعثر علماء الازهر على فصل المقال للحكيم الفيلسوف القاضي ابي الوليد بن رشد (الذي) نص فيه على وجوب معرفة الموجودات والعلم بحقائقها من جهة الشرع وان القرآن العزيز قد امرنا بذلك امرا أكيدا في كثير من الآيات وكتب في

آخر ذلك ماتلك عيون الفاظه . » وقد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء واجب بالشرع وان من نهى عن النظر فيها فقد صد الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله وهو باب النظر المؤدي الى معرفته حق المعرفة وذلك غاية البعد عن الله تعالى . . . » . . . » اولم يدر هؤلاء العلماء ان الامام الغزالي كان من قوله في علم الهيئة فيما نقل عنه الفاضل عصمة الله في التصريح شرح التشريح — للشيخ العلامة بهاء الدين العاملي من انه من لم يعرف الهيئة والتشريح فهو عين في معرفة الله واعظم من ذلك كله الاثر المأثور المشهور عن سيدنا علي فيما اشار به على سيدنا عمر رضي الله عنه بعدم احراق خزانة الكتب بالاسكندرية قال انها علوم ليست تخالف القرآن العزيز بل تعاضده وتفسره حق التفسير لاسراره الغامضة الدقيقة وهو قول معروف عنه وقد اخرج الخبر به مفصلا الحكيم المؤرخ الاسلامي القاضي الصاعد الاندلسي في طبقات الامم فيما نقل عنه العلامة المحدث ابن عيش القرشي التيمي في بعض مقاطيع القسم الاول من الجزء الاول من كتاب الكشف عن الثلاثة فليرجع اليه

هذا وانه لن يذهب عنا الاسف والكمد الذي نجده في انفسنا من جهة قضية الطيوبي وآرائه ومن جهة الحال التي نحس في علماء الازهر ونحن بهذا العصر في حاجة الى مثل الرازي والغزالي وابن رشد الاندلسي وامثالهم من العلماء ومن كانوا في ميزانهم في الدهر الحاضر مثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده واضرابه الذين يضيئون العالم بنور الدين وضياء الاسلام ويبينون للناس ومن في قلوبهم مرض وزيغ عن الحق ان الديانة الاسلامية كلها تطابق العقل والفطرة حذو القذة بالقذة وان العلوم العقلية والكونية بأسرها في الاصل علوم دينية يجب على المسلمين تعليمها والاخذ بها وتعلمها فيخرجوا بذلك عن قعر الذل وغباية الهوان والصغار التي ألقوا فيها وهم صاغرون وقد لزم الاسلام بهم عار قبح به منظره وساءت بذلك هيئته وهم يظنون من أجل ذلك ان الاسلام هو الرادع للناس عن التمدن والارتقاء في معارج العز والاعتلاء فأما نحن فلسنا في حاجة الى امثال هؤلاء الذين يقولون ان العلوم الحديثة مطفئة لنور الاسلام وخمدة لناره ، ومطمسة لآثاره ، وعجلة له

عن عقر داره ومحله وقراره ،

او ليس ان الحال التي انتهت اليها هيئة المسلمين مما يتضاحك بها الاعداء ويتصارخ لها الاولياء بالعويل والبكاء ، وتسكاب الدماء ، اوليس قد تراكمت على المسلمين سحائب الذل والهوان ، وجللتهم غياهب العدم من كل جانب ومكان ، اي نقطة في الوجود من نقاط الارض يكون فيها من حال المسلمين مالا يتصدع لها القلوب وتتفطر بها الاكباد وتجود لها المحاجر والاماق بانهار الدماء السائلات ، وتسكب لها قاني الامطار من المقل الغائرات ، خرجت الممالك من ايمانهم ، واضمحلت الدول التي بقيت في ايديهم كانهم لاحراك بهم وصاروا في العالم كانهم اللعبة تتداولها ايدي الاجانب وتتلاعب بها اكف الاباعد ، بما خرجوا عن امتلاك الاقارب لا يحس فيهم شيء من آثار الثروة ، ولا عندهم ميل الى التجارة والصنعة بل هم زاهدون فيها ، وراغبون عنها ، يستقبحون شكلها ومنظرها ويستفظعون عملها ومصدرها ، ورضوا بالافتقار في تحصيل كل شيء حقير وجلب كل ماعون يسير من أرض أوربا يستجلبون الفرش والسرج للمساجد والصوامع من ارض الافرنج ولا يتفقدون من ذلك شيئا بانفسهم وايديهم . لم يبق لهم عزة ولا صولة ، وما بقي عندهم امر ولا دولة ، واما عددهم فهم وان كانوا يبلغون الى الف مليون نفس في العالم فهم بعد ليسوا في قطر من اقطار الدنيا ممن يفتخر هنالك بوجودهم ولا ممن يتفاخر بهم على لسان وليهم ووددهم او ليفرح الرجل بالنظر الى عيونهم واشخاصهم او يسر اخوهم اذا كان يرمق الى عددهم وافرادهم . فاذا يكون من السبب الاصيل في ذلك ويد من وهنت ذمة هذه الامور والذي احسب ان جل السبب في ذلك ليس الا افقارهم عن العلوم الحديثة وتعاميهم عنها واثم ذلك كله على عاتق هؤلاء العلماء الذين يثبطون تلك الاوزار ويجوزون للمسلمين ان يخرجوا عن غمار الذل والصغار ومن ثم تراهم يرعون عن التعاليم النافعة ويردعون الناس عنها لفتاوى التكفير لمن ولع بهذه العلوم الحديثة ويحولون بينهم وبينها وعلى ابصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ولا يشعرون ان ارتقاء الاوربيين الذي يضرب به المثل اليوم ليس الا من جهة توغلهم في العلوم الجديدة ونبوغهم في الحكم الحديثة وكل دولتهم وقوتهم منسوبة في

الاصل الى تجارتهم وحرفهم وهي في نوبتها منسوبة الى تناغيهم في هذه العلوم الجديدة النافعة

دع عنك اوروبا وانظر الى هذه الامة الحقيرة التي يقال لها أمة يابان افلا يرونها كيف ارتقت في مدة لا تنيف على عدة سنين ولا تعد الا على اناملك الآدميين ارتقاء مبهرا ابهرت الانظار وخطفت لها النواظر والابصار افليس انها لم تستكمل لنفسها مدة خمسين سنة وكانت تعد من قبل ذلك في الاقوام المتوحشة وتستحقرها الامم المتمدنة وهي اليوم في كل شأن على أعلى مراتب الصعود والارتقاء وقد اد هشت الدنيا بأسرها باعمالها البديعة التي صدرت منها في هذه الازمان وكل واحد يحترمها كل الاحترام وحرمتها مركوزة في طبع كل انسان فماذا الذي قلبها عن حالها القديم، وانكس أمرها عن شأنها الفاسد الرميم ؟ ماذلك الا من اجل تناغيها في العلوم والحكم والازهريون على خبرة من حالها ومنهاج ارتقائها ومتوالها وانما الاسف عليهم من اجل انهم لا يقيسون أنفسهم بهؤلاء ولا ينظرون في علل تلك الاشياء ولا يفكرون في اسبابها التي أورثتهم الارتفاع واورثتها الانحطاط والانخفاض ولو كان عندهم صواب في الرأي وحزم في الرواية ومعرفة صحيحة بالقرآن والاسلام لكانوا يستحيون مما هم فيه ولكان كل واحد منهم مثلكم ومثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده يخرج نفسه من شرك التقليد الذي أضل الناس كثيرا ولكان يسلك في منهاج التحقيق الذي هو الصراط المستقيم ويضيء فضاء الارض برحبها وينور العالم الاسلامي بسمته كلها بمشعلة الاسلام ونبراس كلام الله الملك العلام

وليت شعري ماذا الذي علمنا القرآن والاسلام ؟ هل هو بعض هذه الحركات البدنية ام نبذ من تلك المراسم الظاهرية أو مطالب عديدة من مسائل النفاس والحيض يعنون بها التعليم الديني لاغير لا مادون ذلك ؟ كلا ولا كرامة وحاشاهما عن ذلك بل وقد دلانا على مافيه جل الخير وتمام النفع في الدين والدنيا وكمال الربح في الاخلاق والمدنية وعلمانا الاصول التي بها نهتدي الى تحصيل تلك العوائد الثمينة والفوائد الغالية واوجبا علينا اكتساب العلوم الكونية والعقلية

باسرها . ولو كان علماء الازهر مشاركين في آرائهم لملكم ومثل محمد بن عبده وينظرون بنظر الامعان في امضاآتكم البديعة الرشيقة التي علمت الدنيا ان الاسلام من بين سائر المذاهب هو المذهب الواحد الذي يرغب الناس ويشوقهم في تحصيل الفوائد الدنيوية والعوائد الملية والقومية وهو الذي انخذ العلم وانتقل عين الايمان والدين ونفسهما في الاصل ولو لم يكن الازهريون يقلقون فلنا باطلاق ان العلوم الدينية بأسرها منحصرة في الفقه ومقصورة على جزئيات المسائل الفرعية التي لا يعتد ولا يعبأ بها واكثر هذه المطالب ليست بجديرة للعمل في هذه الاعصر والدهور ولو عرفوا ما في تعليمها من ضياع العمر وتضييع الوقت ذلك ما هو معلوم عند كل ذي حجى وهم يزعمون ان الولوع بها مما يشيد بناء الدين لمروّجي الطلبة الازهريون كما هم اليوم في غايتهم من الذل والهوان ونهايتهم من الصغار والخذلان ولو كانوا يعلمون ان العلوم العقلية والكونية عين العلوم الدينية لكانت كلية كيمبردج وآكسفورد تحسد الازهر وتغبطها غبطة ما كان يحسدها احد ولتخرج منها في عرض عدة سنين رجال كانوا يعمدون بالبلاد الاسلامية ويحلقون بها الى أعلى ذرى الارتقاء التي وصلت اليها أمة جابان في هذه الاعصر والازمان

هذا رأيي ورأي سائر الافراد الذين لهم خبرة باحوال الدنيا ووقوف على اخبارها والمام بتواريخها واني لقاطع بصحة هذا الرأي ورأي هؤلاء ممن عداني ان العلماء هم العلة الاصيلة لكل هذا الصغار والهوان وتمام تلك النكبة والخذلان وهم موقوفون غدا بين يدي الرحمن ومسئولون من لدنه فليستعدوا للجواب فهم الاصل الاصيل لجل هذه المفاسد وكل تلك الشنائع وانت يا اخي لا تستطيع وان جهدت كل جهدك للمحاماة عن علماء الازهر أن تغسل هذا العار عنهم وتدفع هذه التبعة والتقيصة منهم فانك لا تستطيع ان تكذب الحس والعيان ولا ان تدفع الوقائع التي حدثت في لادهر والازمان افهذه الكلية التي مضت لبنائها الف سنة وتخرج منها مليون بل اضعاف مليون طلبة ولا يزال يخرج منها كل عام آلاف من هؤلاء الطلبة أفيحق ان يكون نهج التعليم في هذه الكلية بحيث يتخرج منها طائفة من صعاليك الناس وسائلين في الرقاب يتخذون غداءهم بالذلة وعشاءهم بالمسكنة ويبيتون وهم مخذولون بالمسغبة أو يجدر بها أن ينفر فيها عن طريق التعليم التي يتخرج

منها أناس يرتفع بهم منار الدين ويتقد به نار الاسلام ويعلو قدر المسلمين، ويهتدي بها المسلمون الى واجب الصعود والارتقاء ويزيدهم عزة وبهاء ويهيج لهم فرائض الاصطياد والاصطلاء وانما يحزننا أولا انا نجد المسلمين في أي مصر وأية قطعة من قاط الارض كانوا بأسرهم ذاهلين عن استجلاب العلم واكتساب الحكمة غافلين عنها غير مكترثين بها وثانيا انه حيث ما نجد لهم وسائل التحصيل حاضرة ولواحب الاكتساب مشرعة ومناهج التدريس مطروقة ومفتحة وحيثما يوجد لهم كلية قديمة مثل هذه الكلية التي هي أقدم كليات العالم يكون فيها مثل هذا التعليم الفاسد الضار الذي تضيع فيه الاعمار ويضاع فيها الفضة والنضار، ويصطلح الناس فيه على أن يسموا مثل هذا النهج الباطل العاطل الشيق الذي لا ينبعث المسلمون به للنهضة ويشمر من أجلها مادة التحقيق عن قلوبهم الخاوية ويفيض اليهم النظر في العلوم النافعة اصطلحوا على أن يسموه تعليما دينيا وعلى أن يسموا الرجل العارف بمسائل شتى من الطلاق والرقية والنفاس والحيض رجلا عالما ولا غير

هذا واني لست بمسهب مقالي في هذا الشان ولا بمطنب في شكايتي من علماء الزمان نظرا الى ما حوت مجلتكم الباهرة الغراء من أحوال هؤلاء العلماء وشؤنهم واخبارهم فنحن في غنى عن اطالة الكلام عليها وبمعزل عن اسهاب المقال فيها وعلى كل حال فان الاحوال الحاضرة للعلماء ومدارسهم ومكاتبهم مما قد تبين واتضح للناس ضررها وفقدان نفعها للمسلمين وضوح الشمس في كبد السماء وانما بقي وحزني على ذلك من جهة ان الازهر كان هو المدرس الواحد في الدنيا من قديم الاعصر والاعوام الذي كان يرجى فيه اصلاح جميع المفاسد الملية والمدنية في الاسلام ولا غير ولو قبل الناس آراء المفتي محمد بن عبده وبادروها بالقبول لكنا نأمل منه خروج المسلمين عن غيابة الذل والنكبة وترقيهم صعودهم الى أعلى ذرى الفوز والسعادة ولكن عليكم بعد ان لا تيأسوا من روح الله وتجدوا كل الجد في اصلاح المسلمين وأحسنوا ان الله لا يضيع أجر المحسنين، وكتب يوم الخميس ٢٥ خلون من شهر ربيع الآخر وأنا مخلصكم المعنى الوفي

(محسن الملك)